باب الجُـرَذِ والسِّـنَّـوْرِ

قالَ دَبْشَليمُ الملِكُ لبَيْدَبا الفيْلَسُوف: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ، فاضْرِبْ لي مثلَ رجُلٍ كثُرَ أعداؤُهُ وأحْدَقُوا بهِ منْ كلِّ جانِبٍ، فأشْرَفَ معَهمْ على الهَلاكِ فالتَمَسَ النجاة والمَخْرَجَ بمُوَالاةِ[1] بعْضِ أعْدَائِهِ ومُصالَحتهِ فَسَلِمَ منَ الخَوْفِ وأمِنَ ثمّ وَفَّى لمنْ صالَحهُ منهمْ.

قالَ الفيْلَسُوفُ: إنَّ الموَدَّةَ والعَداوَةَ لا تَثْبُتانِ على حالةٍ أبداً، ورُبما حالتِ[2] الموَدَّةُ إلى العدَاوَةِ وصارَتِ العدَاوَةُ ولايةً[3] وصَداقةً، ولهذا حوَادِثُ وعِلَلٌ وتَجارِبُ، وذُو الرَّأي يُحْدِثُ لكلِّ ما يَحْدُثُ منْ ذلكَ رَأياً جديداً، أمَّا مِنْ قِبَلِ العدُوِّ فَبالْبأسِ[4] وأمَّا منْ قِبَلِ الصَّدِيقِ فَبالأسْتِئْناسِ[5] ولا تَمنَعُ ذا العقلِ عداوَةٌ كانتْ في نفْسهِ لعدُوِّهِ منْ مُقاربتهِ والاستِنجادِ بهِ على دَفْعِ مَخُوفٍ أوْ جرِّ مَرْغُوبٍ ومَنْ عَمِلَ في ذلكَ بالحزْمِ ظَفِرَ بحاجتهِ، ومثَلُ ذلكَ مثَلُ الجُرَذِ والسِّنَّوْرِ حينَ وَقَعا في الوَرْطَةِ فنَجيَا باصطِلاَحِهِما جميعاً منَ الوَرْطةِ والشِّدَّةِ. قال الملِكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قالَ بَيْدَبا: زعمُوا أنَّ شجرَةً عظيمةً كانَ في أصْلِها جُحْرُ سِنَّوْرٍ يُقالُ لهُ: رُوميٌّ. وكانَ قريباً منهُ جُحْرُ جُرَذٍ يقالُ لهُ: فَرِيدُونُ، وكانَ الصَّيادُونَ

---

(١) الموالاة: المصادقة.

(٢) حالت: تبدلت.

(٣) ولاية: محبة.

(٤) البأس: الشدة.

(٥) الاستئناس: الأُنس.

كثيراً ما يَتداوَلونَ[١] ذلكَ المكانَ يَصِيدُونَ فيهِ الوَحْشَ والطيرَ. فنزَلَ ذاتَ يوْمٍ صيَّادٌ فنَصَبَ حبالتَهُ قريباً منْ موْضِعٍ رُوميٍّ فلمْ يَلْبَثْ أنْ وقَعَ فيها. فخرَجَ الجرَذُ يَدِبُّ ويَطْلُبُ ما يأكلُ وهوَ حَذِرٌ منْ رُوميٍّ. فبينما هوَ يَسْعَى إِذْ بَصُرَ بهِ في الشَّرَكِ فسُرَّ واسْتَبْشَرَ، ثمَّ التَفَتَ فرأى خَلْفَهُ ابْنَ عرْسٍ يُريدُ أخْذَهُ وفي الشجرَةِ بُوماً يُريدُ اختِطافَهُ، فتَحيَّرَ في أمرِهِ وخافَ إِنْ رَجَعَ وَراءَهُ أخذَهُ ابنُ عِرْسٍ وإِنْ ذَهَبَ يَميناً أوْ شِمالاً اختَطفهُ البُومُ وإِنْ تَقدَّمَ أمامَهُ افتَرَسهُ السِّنَّوْرُ. فقال في نفسهِ هذا بَلاءٌ قدْ اكتَنفَني وشُرورٌ تَظاهَرت عليَّ[٢] ومِحَنٌ قدْ أحاطتْ بي.

«وبَعْدَ ذلكَ فمعي عقْلي فلا يُفزِعُني أمري ولا يَهُولَنِّي[٣] شأني ولا يَلحَقُني الدَّهَش ولا يَذْهَبُ قلبي شَعاعاً[٤]، فالعاقِلُ لا يَفْرَقُ[٥] عندَ سَدادِ رأيهِ ولا يَعْزبُ[٦] عنهُ ذهنُهُ على حالٍ، وإِنَّما العقْلُ شبيهٌ بالبحْرِ الذي لا يُدرَكُ غَوْرُهُ[٧] ولا يَبلُغُ البلاءُ من ذي الرَّأي مجهُودَهُ فيُهْلِكَهُ، وتحقُّقُ الرَّجاءِ لا ينبغي أن يَبلُغ منهُ مَبلَغاً يُبْطِرهُ ويُسْكِرهُ فيَعْمَى عليهِ أمرُهُ، ولسْتُ أرَى لي من هذا البَلاءِ مخلَصاً إلا مُصالحة السِّنَّورِ فإنهُ قدْ نزَل بهِ منَ البلاءِ مِثْلُ ما قدْ نَزَلَ بي أوْ بعضُهُ، ولَعلَّنا إِنْ سَمِعَ كلامي الذي أُكلِّمهِ بهِ وَوَعى[٨] عنِّي صَحيحَ خِطابي ومَحْضَ صِدْقي الذي لا خِلاَفَ فيهِ ولا خِداعَ معهُ ففَهِمَهُ وطَمِعَ في مَعُونتي إِياهُ خَلَصْنا جميعاً.

(١) يتداولون المكان: يتبادلونه بين حين وآخر.
(٢) اكتنفني: أحدق بي، وتظاهرت: تعاونت.
(٣) يهولني: يخيفني.
(٤) شعاعاً: متفرقاً.
(٥) يَفْرَقُ: يفزع.
(٦) يعزب: يبتعد.
(٧) غوره: قعره.
(٨) وعى: حفظ.

ثمَّ إنَّ الجُرَذَ دَنا منَ السِّنوْرِ فقالَ لهُ: كيْفَ حالُكَ؟ قال لهُ السِّنوْرُ: كما تحِبُّ في ضَنْكٍ[١] وضيقٍ، قال: وأنا اليوْمَ شَريكُكَ في البَلاءِ، ولسْتُ أرْجُو لنفْسي خَلاصاً إلا بالذي أرْجُو لكَ فيهِ الخلاصَ وكلاَمي هذا ليْسَ فيهِ كَذِبٌ ولا خَدِيعةٌ، وابْنُ عِرْسٍ ها هوَ كامِنٌ لي والبُومُ يَرْصُدُني، وكِلاهُما لي ولكَ عدُوٌّ، فإنْ أنتَ جَعَلْتَ ليَ الأمانَ قَطَعْتُ حِبالَتَكَ وخَلَّصْتُكَ منْ هذهِ الوَرْطةِ، فإنْ كانَ ذلكَ تَخلَّصَ كلّ واحدٍ منّا بسبَبِ صاحبِهِ كالسَّفينةِ والرُّكابِ في البحْرِ فَبالسّفينةِ يَنجُونَ وبهِمْ تنجُو السَّفينةُ.

فلمَّا سَمِعَ السِّنوْرُ كلاَمَ الجُرَذِ وعَرَفَ أنهُ صادقٌ قال لهُ: إنَّ قوْلَكَ هذا لشَبيهٌ بالحق وأنا أيضاً رَاغِبٌ فيما أرْجُو لكَ ولنفْسي بهِ الخَلاَصَ، ثمَّ إنكَ إنْ فَعَلْتَ ذلكَ سأشْكُرُكَ ما بَقِيتُ. قال الجُرَذُ: فإني سأدْنُو منكَ فأقْطَعُ الحِبالةَ كلَّها إلاَّ حَبْلاً واحداً أبْقيهِ لأسْتَوْثِقَ لنفْسي منكَ، ثمَّ أخَذَ في تَقْريضِ الحِبالةِ؛ ثمَّ إنَّ البُومَ وابْنَ عِرْسٍ لمَّا رَأيَا دُنُوَّ الجُرَذِ منَ السِّنَّوْرِ أيِسا منهُ وانْصَرَفا، ثمَّ إنَّ الجرَذَ أبْطأ على رُوميٍّ في قَطْعِ الحِبالةِ. فقال: ما لِي لا أرَاكَ جادًّا في قَطْعِ حِبالَتي فإنْ كنتَ قدْ ظَفِرْتَ بحاجتِكَ فتَغيَّرْتَ عمَّا كنتَ عليهِ وتَوانَيْتَ[٢] في حَاجتي فَما ذلك منْ فِعْلِ الصَّالحينَ فإنّ الكريمَ لا يَتَوانَى في حقِّ صاحبِهِ.

وقد كانَ لكَ في سابِقِ مَوَدَّتي منَ الْفائدَةِ والنَّفْعِ ما قدْ رأيْتَ وأنتَ حقَيقٌ أنْ تُكافِئَني بذلكَ ولا تَذْكُرَ العَداوةَ التي بَيني وبينَكَ، فالذي حَدَثَ بيْني وبيْنَكَ منَ الصُّلْحِ حَقيقٌ أنْ يُنْسِيَكَ ذلكَ معَ ما فِي الوَفاءِ منَ الفَضْلِ والأجْرِ وما في الغَدْرِ منْ سُوءِ الْعاقبةِ، فإنّ الكريمَ لا يكُونُ إلاْ شَكُوراً غيرَ حَقُودٍ تُنْسِيهِ الخَلَّةُ[٣] الواحدةُ منَ الإحْسانِ الخِلاَلَ الكثيرةَ منَ الإساءَةِ، وقدْ

(١) الضنك: قسوة العيش.
(٢) توانيت: تهاونت.
(٣) الخَلَّة: الخصلة.

يُقالُ: إنّ أعجَلَ العُقوبَةِ عُقُوبةُ الغَدْرِ، ومن إذا تضُرِّعَ إليهِ وسُئِلَ العَفْوَ فلمْ يَرْحَمْ ولَم يَعْفُ، فقدْ غَدَرَ. قال الجُرَذُ: إنَّ الصّدِيقَ صَدِيقانِ طامعٌ ومُضْطَرٌّ وكِلاهُما يَلْتمِسانِ المنْفعةَ ويَحترِسانِ منَ المَضَرَّةِ. فأمَّا الطَّامعُ فيُستُرْسَلُ إلَيْهِ[1] ويؤْمنُ في جميعِ الأحْوالِ، وأمَّا المُضْطَرُّ ففي بعْضِ الأحوَالِ يُسترسَلُ إليهِ وفي بَعْضها يُتَحذَّرُ منهُ، ولا يَزالُ العاقلُ يَرْتَهِنُ منهُ بعْضَ حاجاتهِ لبَعْضِ ما يَتَّقي ويخافُ، وليْسَ عاقبةُ التَّواصُلِ المتوَاصلِ إلاّ لِطلَب عاجِلِ النَّفعِ وبَلوغِ مأمُولهِ.

«وأنا وَافٍ لكَ بما جَعلْتُ لكَ ومُحترِسٌ منْكَ معَ ذلكَ منْ حيْثُ أخافُكَ تَخَوُّفَ أنْ يُصِيبَني منْكَ ما ألْجأَني خوْفُهُ إلى مُصَالحَتِكَ، وألْجأَكَ إلى قُبولِ ذلكَ منِّي فإن لكلِّ عمَلٍ حيناً فما لَمْ يكُنْ في حِينهِ فلا حُسْنَ لِعاقبتهِ، وأنا قاطعٌ حِبالتَكَ كلَّها غيرَ أنّي تارِكٌ عُقْدَةً أرْتَهِنُكَ بها ولا أقْطَعُها إلاّ في السَّاعةِ التي أعلَمُ أنكَ فيها عنِّي مشغُولٌ وذلكَ عندَ مُعايَنتي الصَّيادَ، ثمَّ إنَّ الجُرَذَ أخذَ في قَطْعِ حِبالَةِ السَّنوْرِ. فبينما هوَ كذلكَ إذْ وافَى الصَّيادُ. فقالَ لهُ السِّنوْرُ: الآنَ جاءَ الجِدُّ في قَطْعِ حِبالَتي فجَهَدَ الجُرَذُ نفْسَهُ في القَرْضِ حتى إذا فرَغَ وثَبَ السِّنوْرُ إلى الشَّجرَةِ على دَهَشٍ منَ الصيَّادِ ودخلَ الجُرَذُ بعْضَ الأجْحارِ وجاءَ الصيَّادُ فأخذَ حِبالتَهُ مُقَطَّعةً ثمَّ انصَرَفَ خائِباً.

ثمَّ إنَّ الجُرَذَ خرَجَ بعدَ ذلكَ وكَرِهَ أنْ يَدْنُوَ منَ السِّنوْرِ فنادَاهُ السِّنَّوْرُ: أيُّها الصَّدِيقُ النّاصحُ ذُو البَلاءِ[2] الحَسَنِ عندِي، ما منَعكَ منَ الدُّنُوِّ إليَّ لأجازِيَكَ بأحْسَنِ ما أسْدَيْتَ إليَّ، هَلُمَّ إليَّ ولا تَقْطَعْ إخائِي فإنهُ مَنِ اتَّخَذَ صَدِيقاً وقَطَعَ إخاءَهُ وأضاعَ صَداقتَهُ حُرِمَ ثَمَرَةَ إخائِهِ وأيِسَ منْ نَفْعهِ الإخْوانُ والأصْدِقاءُ، وإنَّ يدَكَ عنْدِي لا تُنْسَى وأنتَ حَقيقٌ أنْ تَلْتمِسَ مُكافأةَ ذلكَ

(١) يسترسل إليه: يُطْمَأَنُّ.

(٢) البلاء: الاختبار.

منِّي ومنْ أخْواني وأصْدِقائي ولا تَخافَنَّ منِّي شيئاً واعْلَمْ أنَّ ما قِبَلي لكَ مَبْذُولٌ.

ثمَّ حَلَفَ واجتَهَدَ على صِدْقهِ فيما قالَ. فنادَاهُ الجُرَذُ: رُبَّ صَداقَةٍ ظاهرَةٍ باطِنُها عَداوةٌ كامِنةٌ وهي أشدُّ منَ العَداوَةِ الظَّاهرَةِ ومَنْ لَمْ يَحترِسْ مِنْها وقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الذي يَرْكَبُ نابَ الفِيلِ المُغْتَلِم ثمَّ يَغْلِبُهُ النُّعاسُ فيسْتَيْقِظُ تحتَ فَرَاسِنِ[1] الفيلِ فيَدُوسُهُ ويَقْتُلُهُ، وإنما سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَديقاً لِمَا يُرْجَى منْ نَفْعهِ وسُمِّيَ العدُوّ عدُوًّا لِما يُخافُ منْ ضَررِه، والْعاقلُ إذا رَجا نفْعَ العدُوِّ أظهَرَ لهُ الصَّداقةَ وإذا خافَ ضَرّ الصَّديقِ أظهرَ لهُ العداوةَ. ألاَ تَرَى تَتبُّعَ البَهائِمِ أُمَّاتِها[2] رَجاءَ أَلْبانِها فإذا انْقَطَعَ عنها انصَرَفتْ عنْها، ورُبَّما قَطعَ الصَّدِيقُ عن صدِيقهِ بعْضَ ما كانَ يَصِلُهُ منهُ فلمْ يَخَفْ شرَّهُ لأنّ أصْلَ أمْرِه لمْ يكُنْ عَداوةً.

فأمَّا مَنْ كانَ أصْلُ أمرِهِ عداوَةً جَوْهَرِيةً ثمّ أحدَثَ صَداقةً لحاجَةٍ حمَلتْهُ على ذلكَ زَالَتْ صدَاقتُهُ فتَحوَّلَتْ وصارَتْ إلى أصلِ أمرِهِ، كالماءِ الذي يَسْخُنُ بالنَّارِ فإذا رُفِعَ عنها عادَ بارِداً، وليْسَ منْ أعْدائي عدُوٌّ أضَرُّ لِي منكَ، وقد اضْطُرَّتْني وإيّاكَ حاجةٌ إلى ما أحْدَثْنا منَ المُصالَحةِ، وقدْ ذَهَبَ الأمْرُ الذي احتَجْتَ إليَّ واحتَجْتُ إليْكَ فيهِ، وأخافُ أنْ يكونَ معَ ذَهابِهِ عَوْدُ العَداوةِ، ولا خيرَ للضّعِيفِ في قُرْبِ العدُوِّ القَوِيِّ ولا للذَّلِيلِ في قُرْبِ العَدُوِّ الْعَزيزِ، ولا أعلمُ لكَ قِبَلي حاجةً إلاَّ أنْ تكُونَ تُريدُ أكْلي، وليسَ عندِي بكَ ثِقةٌ، فإني قدْ عَلِمْتُ أنّ الضَّعِيفَ المُحترِسَ من العدُوِّ القوِيِّ أقْرَبُ إلى السَّلامةِ من القوِيِّ إذا اغترَّ بالضّعفِ واستَرْسَلَ إليْهِ، والْعاقلُ يُصالحُ عدُوَّهُ إذا اضْطُرَّ إليْهِ ويُصانِعُه ويُظْهِرُ لهُ وُدَّهُ، ويُرِيهِ منْ نفْسهِ

(١) فراسن: مفردها فِرْسِن وهو للفيل والجمل كالقدم للإنسان.

(٢) أماتها: جمع أم. والأمهات للإنسان والأمات للحيوان.

الاسترْسالَ إِلَيْهِ إِذا لمْ يَجِدْ منْ ذلكَ بُدًّا، ثمَّ يُعجِّلُ الانْصِرافَ عنهُ حينَ يَجِدُ إِلى ذَلكَ سَبِيلاً.

وٱعلمْ أنَّ سَريعَ الاسترْسالِ لا تُقالُ عَثْرَتُهُ، والْعاقلُ يَفي لمنْ صالَحَهُ منْ أعدَائهِ بما جَعَلَ لهُ منْ نفْسهِ ولا يَثِقُ بهِ كلَّ الثّقةِ ولا يأمنُهُ على نفْسهِ معَ القُرْبِ منهُ، وينْبغي أنْ يَبْعُدَ عنهُ ما اسْتطاعَ، وأنا أوَدُّكَ منْ بَعيدٍ وأحِبُّ لكَ منَ البَقاءِ والسَّلامةِ ما لمْ أكُنْ أحِبُّهُ لكَ منْ قَبْلُ، وليْسَ عليْكَ أنْ تُجازِيَني على صَنِيعي إِلاَّ بمِثْلِ ذلكَ إِذْ لا سبيلَ إِلى ٱجْتِمَاعِنا، والسّلامُ.